الاصول الفكرية المشتركة للتجمعات السكانية في المشرق والمغرب العربي

الدكتور وليد الجادر
جامعة بغداد ـ كلية الآداب

المعروف عن منطقة الوطن العربي ، انها تحوي أهم المصادر الرئيسة لدراسة أقدم الحضارات البشرية ، وعلى العلماء العرب بشكل خاص تقع مسؤولية المساهمة المباشرة لتوضيح تفاصيل عديدة لا زال البعض منها قيد الدرس والبعض الاخر ينتظر التنقيب والاكتشاف .. ومثل هذا الواقع لابد أن يكون مثيرا وبنفس الوقت دافعا للمزيد من البحث والتقصي.

يتميز المغرب العربي عن مشرقه بواقعه الجغرافي وبيئته ، اضافة الى بعض الخصائص العامة القريبة الشبه من جزئها الشرقي ، وأهم خاصية معروفة هي الواقع الجغرافي ، والخاصية الثانية البيئة ، ويضاف الى هاتين الخاصتين أو الصفتين المهمتين خصوصية الاصول المشتركة للتجمعات السكانية في هاتين المنطقتين .

والجديد بالذكر هنا ، أن مراكز عديدة في المغرب العربي ومناطق في جنوب غرب آسيا ومنها المشرق العربي وبالذات وادي الرافدين كانت ولا زالت من المحطات الاولى التي مارست فيها تجمعاتها السكانية تجاربها الحضارية الاولى .. وسيوضح بحثنا عن ارتباط التجمعات السكانية في المغرب والمشرق العربي والابداعات الحضارية التي تم التوصل اليها وذلك خلال صراع مجموع هذه التجمعات في كلا الكتلتين الجغرافيتين الكبيرتين

مع الطبيعة وتجاربها الاصيلة في سبيل تحقيق الاغراض الحضارية المشتركة لسكانها ·

والمعروف عن اتصال مناطق المغرب المباشر بالبحر المتوسط من الشمال وتصل العلاقة بعد ذلك بامتدادات هذا البحر حتى مناطق جنوب غرب اسيا ككل · هذا اضافة الى اتصال هذه المناطق من المغرب العربي بالصحراء ، التي لم تكن في الواقع صحراءا مقطوعة ، كما تبدو بالنسبة للبعض ·· فقد سهلت هذه المنطقة الاخيرة ايصال التجمعات السكانية من الجزيرة العربية الى المغرب العربي من خلال سواحل أفريقيا الشرقية المعروفة · كذلك كان البحر الاحمر نفسه واحدا من المعابر شبه البرية الى فترة حديثة نسبيا بالنسبة لاهتماماتنا الخاصة بالدراسات القديمة وهذه الفترة هي نهايات عصر البلايستوسين أي منذ حوالي الاثني عشر الف عاما(١) ·

والجدير بالذكر ان هذه الصحراء تحوي على جزء كبير من جغرافية منطقة المغرب العربي · وتوضح نتائج التنقيبات الاثرية نقاطا مهمة جدا عن عمق تطور ثقافات التجمعات السكانية فيها ·· فتنتشر في هذه الصحراء مجموعات من الواحات لا زالت تستقطب أعدادا من التجمعات السكانية وتأسست مدنا عديدة بجوار وحوالي هذه الواحات(٢) · هذا اضافة الى مناطق تجمعات السكان بالقرب من الآبار وما يعرف بالفوجارات · ويستطيع سكان الصحراء حتى اليوم الحصول على المياه في بعض المناطق من أعماق بسيطة من تحت التربة ، وتعرف مثل هذه العملية بالعقلة أو التيلماس أو الاينكور ، ويمكن كذلك الحصول على الماء

---

(١) د· تقي الدباغ و د· وليد الجادر ، عصور قبل التاريخ ، بغداد ، مطبعة جامعة بغداد ، ١٩٨٣ ·

(2) Tixier , J. Le Campement Prehistorique de Bordj Mellala . Paris . 1973 .

في مناطق اخرى من الصحراء بعد حفر حوالي (٧٥) مترا ، واحيانا الف متر كما . هوا لحال فى منطقة وركلة والف وخمسمائة متر كما فى توكرت .. وحسب التقديرات يبلغ حجم الخزان المائي فى الصحراء حوالي اثنا عشر مليار متر مكعب ويمتد لمسافة تفوق النصف مليون كيلو متر مربع(٢) .

وهنالك نوعية اخرى من الطبيعة والمناخ في شمال افريقيا كانت كذلك من مراكز الاستقطاب السكاني الكثيف .. فالى الشرق والجنوب الشرقي من جبال الحجار تمتد العوينات والجلف الكبير وجبل السودا بجنوب طرابلس والجبل الاخضر ذو الغطاء النباتي ، والذي يعتبر استمرارية للغطاء النباتي لمناطق جبال الحجار وتبستي . وكانت المنطقة الاخيرة وهي منطقة الجبل الاخضر من المحطات الرئيسية التي ربطت التجمعات السكانية لكتلتي المشرق والمغرب العربي ، كما انها كانت منطقة استقرار ملائم للكثير من المهاجرين من مناطق جنوب غرب اسيا بشكل عام ، اضافة الى تفضيل بعض المهاجرين من اليونانيين والرومان الاستقرار في مثل هذه المناطق فيما بعد(٣) .

وتؤكد نتائج التنقيبات الاثرية والدراسات المرتبطة بها في هذه المناطق ومناطق اخرى في المغرب العربي العثور على بقايا عظمية لمجموعة من الحيوانات معروفة باصولها الاسيوية ، اضافة الى بقايا نباتات معروفة بنسبتها الى مناطق في السودان علما بمعرفتنا باتصال جماعات السودان وبشكل طبيعي بمنطقة واقليم الحجار المعروف(٤) .

---

(٢) الطاهر عدواني: دراسة للحضارة فيعصور ما قبل التاريخ بالصحراء الجزائرية وخاصة أثناء العصر الحجري الحديث . رسالة ماجستير (غير مطبوعة بعد) من جامعة الاسكندرية ١٩٧٤ ص٢٠ـ٢١ .

(3) Mahfoud Kaddache . L ' Algerie dans L antiquité . Madrid . 1972 .

(4) Arkell , A . J . History of the soudan . London . 1955 .

د. قوزي فهيم جادالله : « بين ليبيا والسودان فيالعصور القديمة » المؤتمر السادس للاثار فيالبلاد العربية، ١٩٧١، القاهرة ١٩٧٣ .

كذلك فان التجمعات السكانية في كل المناطق الواقعة تقريبا في جهات ما يعرف بغرب النيل مثل أطراف واحات الخارجة والداخلة ومنطقة عوينات وتبستي الشرقية والغربية .. وكل هذه المناطق كانت غير معزولة عن بعضها البعض والاحتمال الاكثر ، أن يكونوا من أهل جنس واحد مع مجيء جماعات تداخلت بانسيابية هادئة وبدون عنف مع هؤلاء جميعا .

ومن المعروف عن تشابه نوعية الانسان المكتشف في معظم مناطق المغرب العربي ، ومن ذلك خصائص بقايا انسان مغارة ليتورين القريبة من موقع سيدي عبدالرحمن في المغرب ، المعروف بكونه من جنس الاتلانتروبس المعروف بنفس الصفات الاساسية من مواقع اخرى في ديرة الدادة في أثيوبيا (الحبشة) ومن موقع هوافتيح في برقة ... الخ(٥) .

وتستمر مراحل تطور الانسان في المغرب العربي لترتبط بشكل وثيق مع نفس نوعية الانسان المنتشر في المشرق العربي ، وخاصة خلال فترة ما يعرف بمعيشة نوعية الانسان المعروف بانسان النياندرتال، وهو في المغرب العربي من النوع الكلاسيكي والمحدد زمنا بواسطة الكربون (C 14) المشع بحوالي ٤٣٫٠٠٠ الف سنة قبل الميلاد ، وهو يشابه انسان النياندرتال المكتشف في فلسطين .. وقد طبقت نفس الطريقة المختبرية المعروفة أيضا على بعض البقايا العضوية المتفحمة التي عثر عليها في المواقد في طبقات كهف هوافتيح وكانت النتائج متطابقة في تقدير أعمار

---

(5) Julien . ch . A . Histoire de L ' Afrique Blanche - Que — Sais — Je . Paris . 1966 .

McBurney. C.B M. The Stone of Northern Africa - Penguin Books. London 1960.

هذه البقايا بحوالي ٤٣٫٠٠٠ الف سنة قبل الميلاد أيضا(٦) ٠

كذلك تتشابه وتتناسق الادوات المنجزة من قبل الجماعات التي سكنت كهف هوافتيح هذا مع مثيلاتها من مناطق فلسطين ٠ ويذكر أن الجماعات المعروفة في شمالي أفريقيا تحت تسمية « انسان المغرب » والمحددة التواجد بحدود الالف العاشر قبل الميلاد ، والتي تعرف أيضا بجماعات البحر المتوسط القديمة هي في الاصل مجموعات مهاجرة من مناطق جنوب غرب اسيا ، وقسم من هؤلاء اجتازت المناطق الاولى وصولا الى جزر الكناري(٧) ٠

أما المجموعة السكانية المعروفة الانتشار في المغرب العربي ، والتي ينسب اليها انتاج ما يعرف بالثقافة القفصية ، وهي نسبة الى موقع قفصة في مناطق غرب تونس ومحاذية لاطراف الجزائر الشرقية ، فانها مجموعة من النوع المعروف بالتجمعات السكانية الافريقية من الشرق الادنى ٠٠ والمهم هنا ومن أجل ايجاد الصلة البشرية والالفة الثقافية وجوب تتبع طرق وصولهم الى المغرب العربي ، وكان ذلك عن طريق السودان بالذات وكانت مناطق استقرار البعض من هؤلاء في مواضع أمكن رصدها خلال نتائج التنقيبات الاثرية ومنها مواضع في الشرق الجزائري ومنها قسنطينة ٠ ومنها أيضا مواضعهم في الصحراء الكبرى حيث اختلطوا مع الجماعات السابقة الذكر وهم جماعات البحر المتوسط ، اضافة الى

---

(٦) طه باقر : عصور ما قبل التاريخ في ليبيا وعلاقتها باصول الحضارات القديمة ، مستل من كتاب ليبيا عبر التاريخ ٠

Mc Burney . C . B . M The Stone Age of Northern Africa - London . Penguin . 1960 .

(٧) سكان الشمال الافريقي من أقدم العصور حتى الاسلام ـ مجلة كلية الاداب ـ عدد ٢٥ (١٩٧٩) ٠

Olivier , R . A . Papers in African Prehistory Great Britain . Cambridge . 1970 .

اختلاطهم مع جماعة ثالثة من الجنوب يعرفون بكونهم أصلا من الزنوج .

والمعروف عن جماعات البحر المتوسط انهم يتميزون برؤوس طويلة ومستقيمة ويكون الوجه طويلا والانف دقيق معتدل في الغالب وشعر الرأس مجعد ولون البشرة يتراوح بين السمرة الفاتحة والسمرة الغامقة ويرجع أصل السكان المقترح في وادي النيل وسكان ليبيا الى هذا الجنس أيضا(٨) .

أما التجمعات السكانية الاخرى المعروفة تحت تسمية « البربر » في المغرب العربي فهم في الحقيقة من مجموعات التجمعات السكانية السامية والحامية وانهم وصلوا الى المغرب العربي عن طريق شبه جزيرة سيناء وعن طريق ومسالك جنوب غرب الجزيرة العربية وكانوا قد عبروا هذه المسالك خلال ما يعرف بفترة الرعي في هذه الاجزاء من الوطن العربي الغربية والمحددة بين الفترة من نهايات الالف السادس والالف الثالث قبل الميلاد(٩) .

وما يذكره الباحث الجزائري المعروف مبارك الميلي ، متشبها بما يورده ابن خلدون من كون البربر أصلا من نسل كنعان وهو من حام ويدعى ابن كنعان « مازيغ » .. والمعروف عن الجماعات التي تسمى هناك « بالقبائل » بأنهم القبائل البربرية وهم الامازيغ ، ولقد تبنى هؤلاء اللغة التي نقلها الفينيقيون الى المغرب العربي .. كذلك فان الابجدية المعروفة باللسان البربري وهي « التيفيناز » هي نفسها المعروفة بالابجدية الليبية البربرية والاخيرة ترتبط باللغة السامية ومن ثم بالفينيقية(١٠) .

---

(٨) دراسات في اثار الشرق القديم وتأثيراتها على المناطق المجاورة، مجلة كلية الاداب، ١٩٧٩ .

(٩) د. وليد الجادر « سكان الشمال الافريقي من أقدم العصور حتى الاسلام » مجلة كلية الاداب، العدد ٢٥، (١٩٧٩) .

(١٠) نفس المصدر السابق، ص٢٢٤ .

والمعروف ان كان للفينيقيين دورا مهما جدا في ايصال العديد من الابداعات الحضارية الى السواحل الشرقية للبحر المتوسط وشمالي افريقيا(١١) ٠

وعن ابن خلدون أيضا نلاحظ ، أن القبائل البربرية هم أصلا من الحميريين والكنعانيين ٠٠ وكانت جماعاتهم قد اجتمعت في سوريا قبل أن تهاجر الى المغرب العربي فيما بعد ٠٠ ويذكر عن اختلاط الاخيرين المعروف بجماعات الطوارق الذين يسمون أحيانا ببربر الصحراء ٠٠ ولقد استطاع الطوارق أن يتمركزوا في مناطق منتشرة في الصحراء مع محافظتهم على نقائهم الجنسي لفترات طويلة ٠

ولقد كان انتشار الفينيقيين ، وهم من الساميين المعروفين في كل مناطق المشرق والمغرب العربيين ، انهم انتشروا بشكل مكثف ومنذ بدايات الالف الاول قبل الميلاد في مجموعة الشواطيء الصالحة للملاحة والمطلة على البحر المتوسط والمحيط الاطلسي ٠٠ واضافة الى اختلاطهم الاجتماعي فانهم ساهموا في نقلة حضارية ضخمة ومنها ايصال الجماعات السكانية في المغرب الى المرحلة التاريخية المتميزة بالتدوين والكتابة(١٢) ٠ كذلك نفهم جيدا دور الفينيقيين في ربط عناصر حضارية عراقية ومصرية، اضافة الى ايصال عناصر حضارية مصرية الى شمال أفريقيا ٠

---

(١١) دور التراث الفني فيالنهضة الحضارية، مجلة كلية الاداب، العدد ٢٢ ـ ١٩٧٨ ـ ٠

(12) Balout . L . Algerie Prehistorique . Paris 1958
Cintas . Histoire et Archéologie Comparée . Paris 1970
Gauthier . E . F . Le Passé de L ' Afrique du - Nord . Paris . Payot . 1952
Moscati . S . The Semites In Ancient History - Cardiff. University of Wales Press. 1954.

ولقد امتد انتشار الجماعات الفينيقية الى الصحراء وساهموا بذلك في ربط سكان العديد من القرى والمواضع في المغرب العربي بعضها ببعض وذلك بفعل الحركة التجارية والفكرية ومن الاخيرة المفردات الحضارية . ومما يذكر عن سكان مدينة قرطاجة وحدها ، وهي العاصمة الفينيقية الرئيسية في شمالي أفريقيا ان تعداد سكانها في بداية القرن التاسع قبل الميلاد كان حوالي ربع مليون نسمة . ولقد أمكن التعبير عن بداية عصر يسمى بالعصر الفينيقي في تاريخ المغرب العربي .

كذلك فقد وصلت المحطات التجارية البحرية الفينيقية الى ما يقارب الثلاثمائة محطة . وكل هذا الوجود المشرقي العربي للجماعات السكانية في المغرب العربي ما هو في الواقع الا شكلا من أشكال التكامل للواقع الطبيعي والفكري والتاريخي .. واننا نؤكد الدور الايجابي الظاهر في ارتباط تجمعات سكانية في كلا القطبين العربيين في مرحلة نحن في حاجة ماسة الى ترديدها من أجل استمرارية الارتباط الطبيعي .

وتستمر سلسلة الارتباط البشري بين مجموعة السكان في المشرق والمغرب العربي في مرحلة الفتح الاسلامي أوج نضجها ، ومن المغرب باتجاه مدن اوربا الرئيسة المطلة على البحر المتوسط(١٣) .

---

(١٣) محمد الصغير غانم ، التوسع الفنيقي في غرب البحر المتوسط . رسالة ماجستير من جامعة الجزائر، ١٩٧٣-١٩٧٤ .
د. محمد فنطر ، قرطاج ، تونس، ١٩٦٣ .

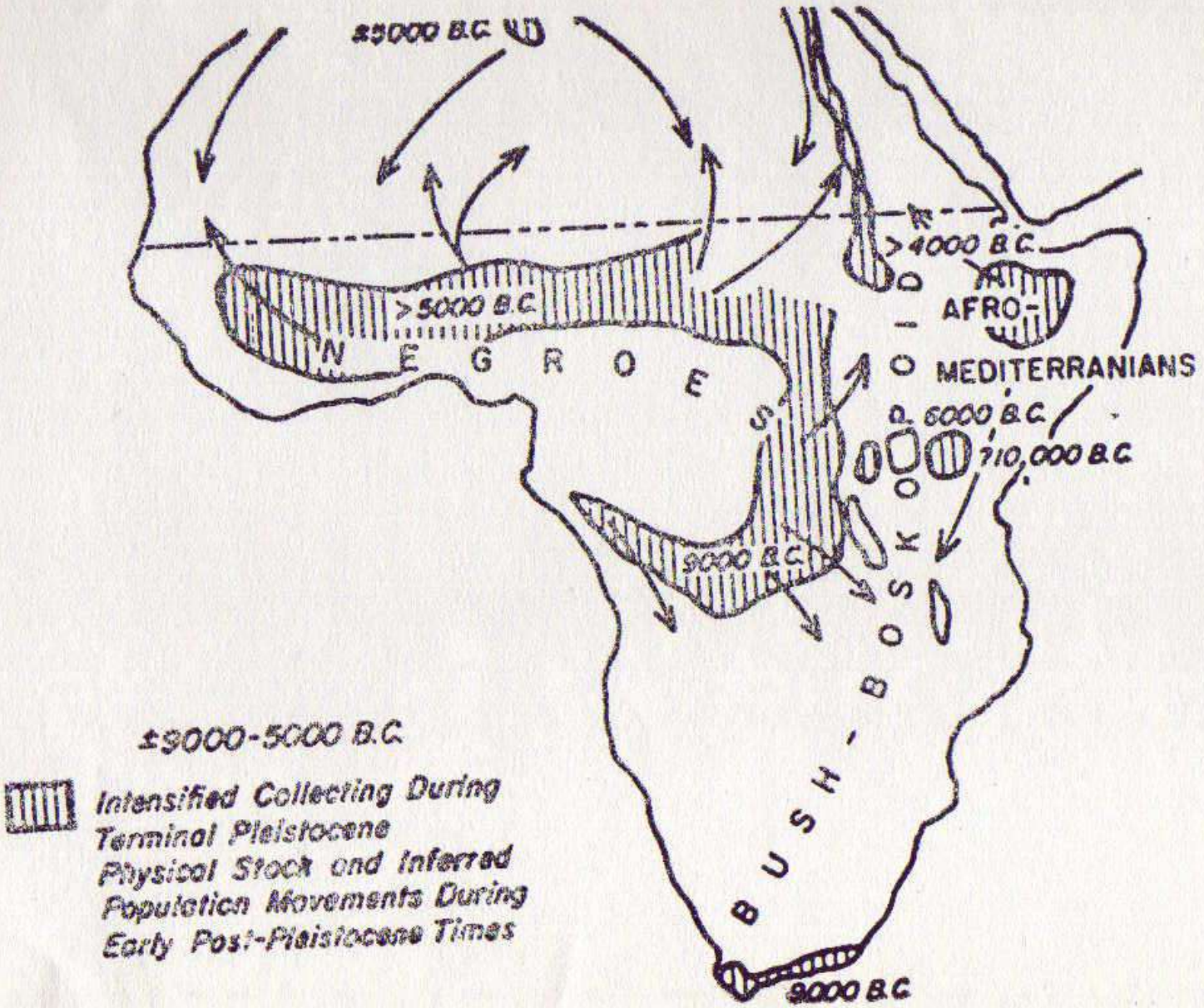
±9000 B.C.
>4000 B.C.
>5000 B.C.
AFRO-
MEDITERRANIANS
a. 6000 B.C.
±10,000 B.C.
9000 B.C.
NEGROES
BUSH-BOSKOP
9000 B.C.
±9000-5000 B.C.
Intensified Collecting During Terminal Pleistocene
Physical Stock and Inferred Population Movements During Early Post-Pleistocene Times

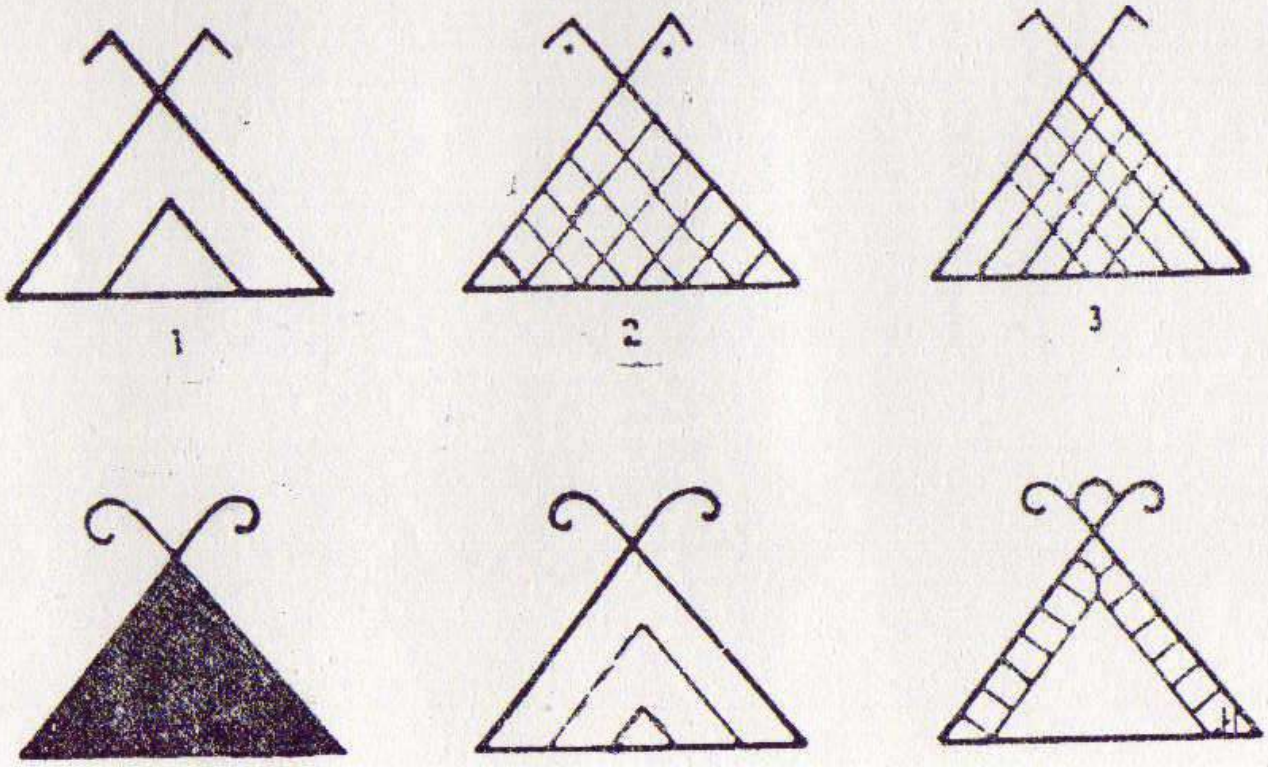

من نماذج الوحدات الزخرفية المنتشرة الاستعمال على فخاريات صقلية
وشمال افريقيا وبعض مناطق جنوب غرب آسيا

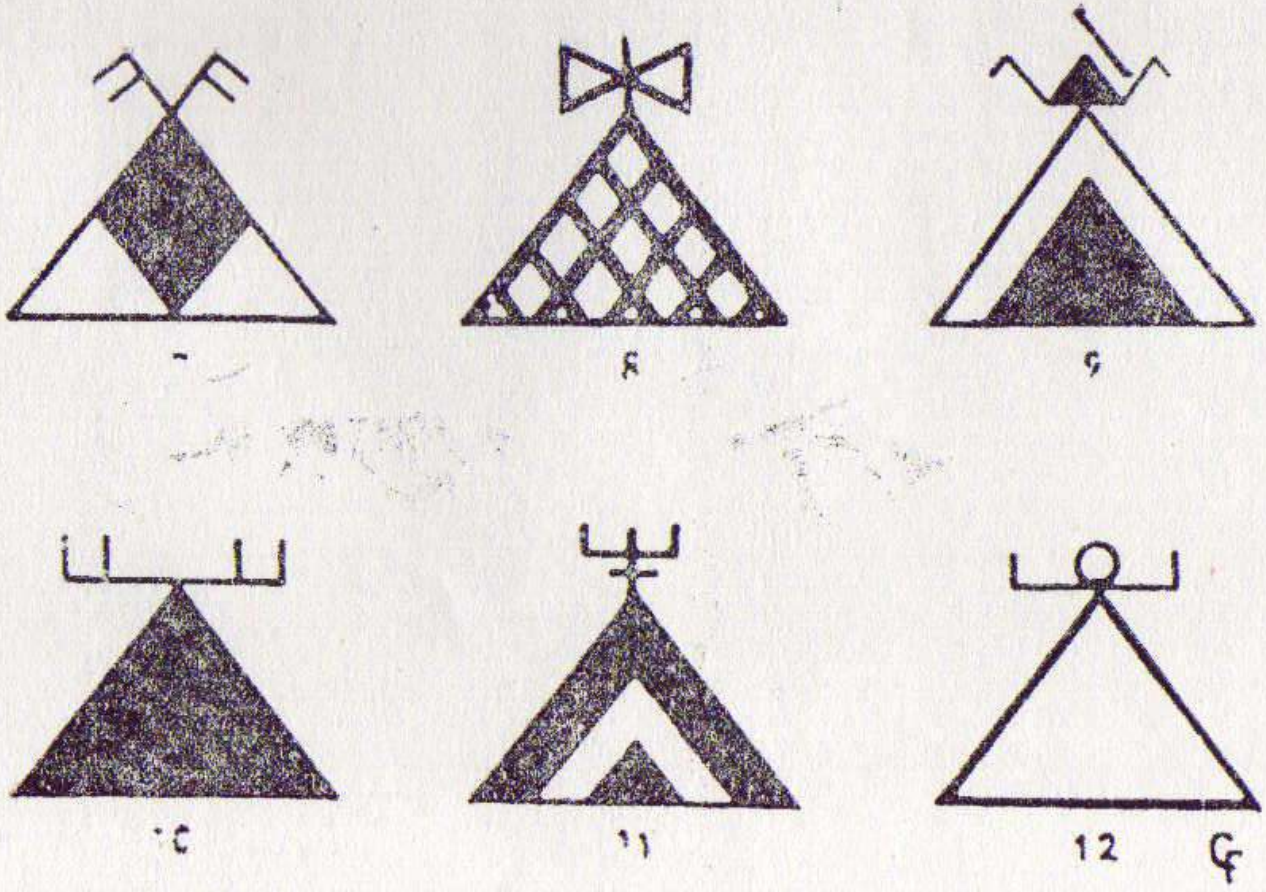

من نماذج الوحدات الزخرفية فى شمال افريقيا وجنوب غرب آسيا
ويبدوا رمز وشكل المعبودة تانيت المعروفة فى جنوب غرب آسيا تحت
تسمية المعبودة عشتار المعروفة .

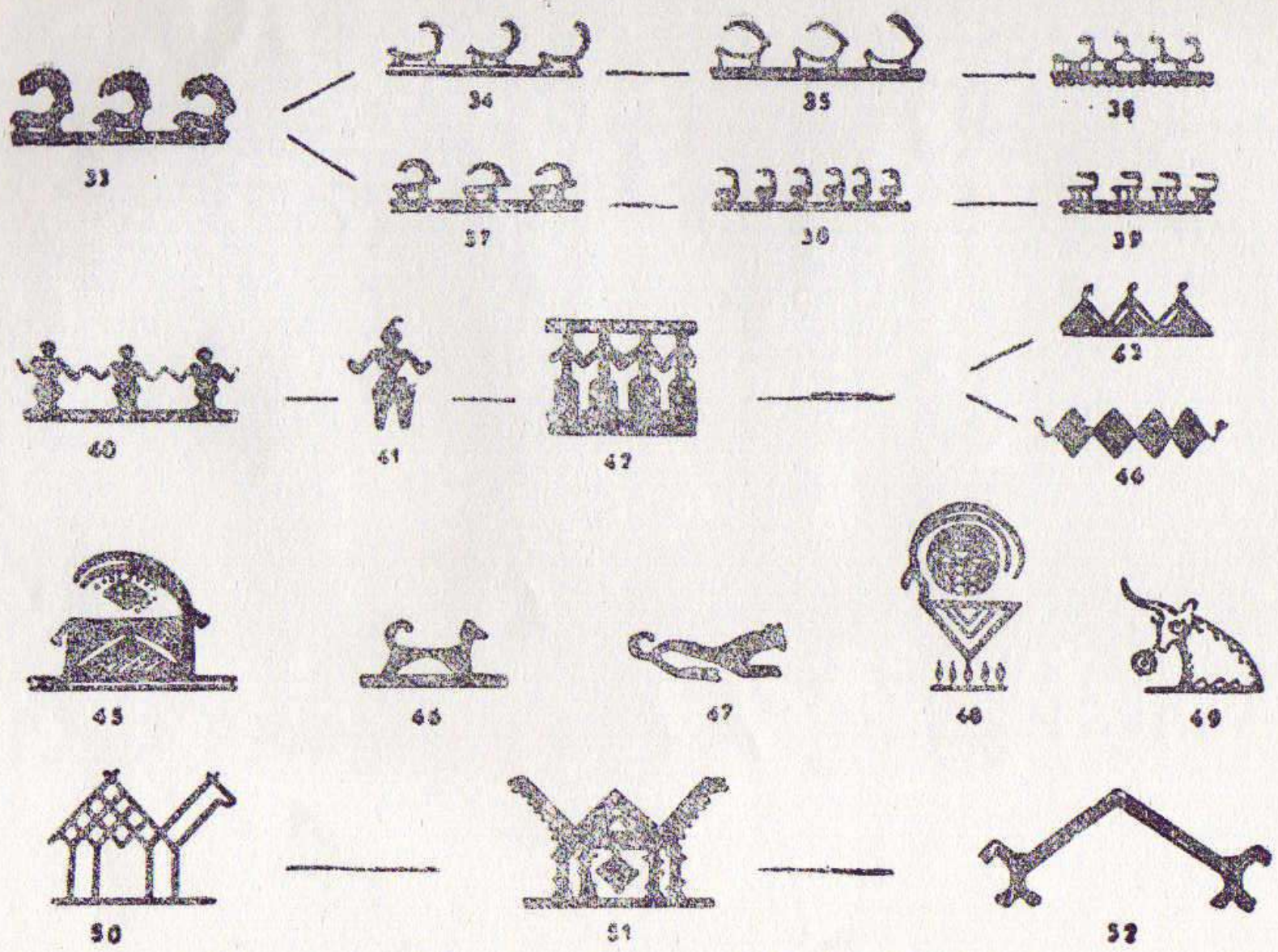

وحدات زخرفية متنوعة من مناطق جنوب غرب آسيا وشمالي افريقيا